صديق الماضي

من ماضٍ تهاوت فيه الذكريات إلى حاضر
تجددتْ به الحياة فبين غمضت عين
وانتباهها يغير الله جميع الأحوال ومن
كانوا يومًا ماضيًا يرجعوا إلينا ليصبحوا
حاضرًا ولكن هل الذي جمع اجسادنا قادر
على ان يجمع ارواحنا؟
وهل يعود الحب كما كان؟
فبي هذه الحياة وجدت جميع أنواع
الأشخاص ولكن لم أجد مثل صديق قديم
لي فيبقى طيفه عالقًا بجزء من ذاكرتي
ولكنه ليس كأي جزء بل إنه الجزء المميز
والأحب لقلبي.
صديق الماضي

صديق الماضي

الكاتب: عمر السميرات

(هذا الكتاب تحت إشراف فريق غبراء الأدب)

رهف محمد العليمات

بإشراف:

رهف محمد العليمات

أسماء المدققين في هذا الكتاب:

رهف محمد العليمات

تسنيم مصطفى النصله

أسم المنسقة في هذا الكتاب:

رهف وسيم رمانة

المقدمة:

ستجلس يومًا تغرق في أفكارك، تعيد ذكرياتك الجميلة التي أصبحت جزءًا من سجلات الماضي المنسية.

ستتحسر على كل لحظة عشتها، بحلوها ومرّها، وتتمنى لو تعود ليومٍ، ساعة، أو حتى دقيقة. تريد أي شيء يعيدك إلى تلك الأيام، أو يجعلها تأتيك لتذكّرك بها. فليس المهم الطريقة، بقدر ما يهم الشعور.

ستشتاق إليها، وتبدأ في نبش ماضيك، وتتساءل: إلى أين أذهب؟ ما الأماكن، الأشخاص، الأزقة، وغيرها مما يحمل في داخله أيامنا القديمة؟

ستعود في البداية إلى المدرسة، التي كان لها النصيب الأكبر من الذكريات. تقف عند بابها، تتأمل ما تغيّر فيها، وتتفحص كل زواياها.

الباب قد استُبدل ببوابة كبيرة مطلية باللون الأسود. تدخل لتكتشف أن المباني تغيّر لونها وأصبحت أكبر. ساحة المدرسة، التي كنت تلهو فيها، أصبح وسطها مظلّلاً بهيكل حديدي (زينكو)، فصارت غير ملائمة للجري كما كانت من قبل.

ستتوجه لتجلس في مكانكم المعتاد، المكان الذي كان شاهدًا على جميع قصصكم ورواياتكم المسلية، لتجد أنه قد أُزيل، فتطايرت الحكايات كما ارتحل أصحابها.

ستبحث عن أي مكان يعيدك إلى الماضي، إلى الأصدقاء، إلى الرفوف المنسية، إلى الملعب، المسجد، السوبر ماركت، المطاعم، والشوارع الضيقة. ستبحث عن نفسك القديمة وعن أصدقائك، لعلّك تجدهم في أحد أزقة ماضيكم المدفون.

وبعد كل هذا...

ستجد من يعيدك إلى تلك الأيام، يأخذك بعيدًا، فتسترجع ذكرياتك التي ستبكي على رحيلها. لكن هذه المرة، سيكون البكاء مصحوبًا بحسرة وضيق على حالتكم الراهنة. ستشعر بالألم والانكسار، ولو كان هذا هو حال الحياة. لكن، ما الذي قد يسلّي المرء سوى ذكرياته الجميلة، وخاصة أيام الطفولة؟

لا شيء. ستبكي، ستهتز مشاعرك لزوالها، وستندم. بل ربما ستقول: "لو متّ أيامها لكان أهون عليّ من هذه الحسرة".

الإهداء:

بدايةً، إلى جميع أعضاء نادي الحوار والمناظرة، وأخص بالذكر فريق "دوّن"، وإلى فريق "غُبراء الأدب" بقيادة المديرة رهف العليمات.

أهدي هذا العمل أيضًا إلى كل كاتب طموح وكل كاتبة طموحة، وإلى كل قارئ سيقرأ ما جادت به أقلامي.

حاشية

كُتب هذا العمل أثناء أحداث حرب غزة الضارية. إن قرأت القصة والحرب لا تزال قائمة، فادعُ لهم بالنصر. وإن قرأتها بعد أن وضعت الحرب أوزارها، فادعُ الله أن يرحم الشهداء الذين ضحّوا بدمائهم الزكية الطاهرة المباركة في سبيل رفع راية الإسلام والنصر. فلا تنسَ إخوانك من الدعاء.

في ليلة من ليالي أكتوبر التي تُعرف ببرودتها الجافة، كان الهواء قويًا إلى حدٍّ ما، حيث تتساقط أوراق الشجر الهشّة المصفرّة على جوانب وزوايا كل شارع، وتتطاير معاطف المارّة بفعل قوته، بينما يحاولون جاهدين إغلاقها بأيديهم.

في أكتوبر هذا، لم يكن ورق الشجر وحده ما يسقط؛ بل الذكريات أيضًا.

الذكريات الجميلة التي دُفنت، تحلّلت، وتطايرت في هواء النسيان الطلق. وأضحى أصحابها كالمشرّدين، مشرّدين بلا ماضٍ ورديّ يُؤنس وحدة أيامهم.

في برودة تلك الليلة، اتجه محمد إلى صديقه علي، الذي يسكن في الشارع "س"، المعروف بالشارع المهجور. قصد محمد وجهته ليقصّ عليه قصة أثارت شجونه، أرهقت فؤاده حسرةً، ونالت من أحاسيسه. قصة باتت دموعه ترويها بدلًا عنه.

وصل محمد إلى وجهته. اقترب من الباب الحديدي المتهالك وطرقه برفق، ثم دخل. ابتسم ابتسامة زائفة، وضع يده على صدره، وقال:

-مرحبًا يا علي.

-آه، محمد! من الجيد رؤيتك اليوم. ادخل بسرعة. كيف حالك؟ منذ فترة لم تترك لك أثرًا هنا، أين اختفيت؟

-ها أنا ذا، أمامك.

-أعلم أنك أمامي، لكن أخبرني: هل عثرت على عمل جديد ولا تريد إخباري به كعادتك؟ (ها ها).

-يا لك من ساذج... الأمر ليس كذلك أبدًا.

-أرى أن مزاجك عكر، وكأن شيئًا ما يشغل بالك. فمك مزدحم بالكلام، وأدركت ذلك منذ قدومك. عادةً، تبتسم وأنت تطرق الباب، أما اليوم، وجهك عابس لا يُفسَّر! ما بك؟ أخبرني...

-إن ما تقوله صحيح. بفمي كلام، وداخلي ممتلئ بالكلام. لست بخير.

-ما بك؟ أخبرني! تعلم أنني لا أحتمل رؤيتك هكذا مكتئبًا. قل لي يا عزيزي.

-لست أدري... هل يجب أن أقول لك أم لا؟ ما يزعجني ويجعلني حزينًا كئيبًا، كالسحابة السوداء شحيحة المطر، ليس أمرًا يخصني شخصيًا، بل أمر صديق قديم... قديم جدًا.

-صديق قديم؟ من هذا الصديق؟

-لا عليك... إن الأمر هيّن بإذن الله. لنشرب الشاي، أم أعددته لك وحدك؟ يا لك من بخيل!

-سنشرب الشاي، وستقصّ عليَّ قصة "الصديق القديم" فورًا.

محمد شاب يبلغ من العمر إحدى وعشرين سنة، متوسط الطول والوزن، ذو وجه دائري ممتلئ، وشعر ناعم بلون الخروب، وعينين عسليتين تحت حاجبين كثيفين كحاجبي مستذئب. يتميز بطلة كلاسيكية قديمة، فهو يعشق التفاصيل العتيقة ويبغض مواكبة التطورات الحديثة بكل أنواعها، سواء في الملبس أو الأجهزة المتطورة أو حتى الإكسسوارات التي يراها بلا قيمة.

أتى إلى صديقه علي، البالغ من العمر أربعًا وعشرين سنة، والذي يسكن في محلّه الخاص. لا يملك علي بيتًا ولا يستأجر شقة؛ يعيش في غرفة صغيرة في شارع مهجور ومنسي، بعيد عن الأنظار، حيث يعمل في صيانة السيارات.

رغم صغر سنه، كانت ملامح علي تبدو أكبر بكثير، إذ كسا الشيب نصف رأسه، وظهرت التجاعيد حول عينيه وفي يديه. كما كان صوته يحمل بحةً شبيهة بصوت رجل عجوز طاعن في السن، لكنه لم يكن ينزعج من ذلك على الإطلاق.

بعدما دار الحديث بينهما لنحو عشر دقائق، دخل محمد وجلس على الأريكة التي تتوسط المحل. ربما لم أصف تفاصيل المكان...

الغرفة أشبه بالقبو، يُنارها ضوء وحيد معلق في سقفها المنخفض. الأثاث نادر، وإن كانت محلًّا للعمل فهي أيضًا مكان نوم علي. لا تحتوي الغرفة سوى على أريكة رثّة متهالكة تتسع لشخصين، وكرسي خشبي، وفراش في زاوية بعيدة للنوم. أما باقي المساحة، فهي ممتلئة بقطع غيار السيارات والزيوت الملقاة في كل مكان.

جلس علي على الأريكة بجانب محمد، فرد ذراعيه على طولها، ومد قدميه، ثم شرد ناظرًا إلى السقف وهو غارق في التفكير.

بعد قليل، أعدّ علي الشاي بالقرفة، مشروبه المفضل في الشتاء وفي كل الأوقات تقريبًا، وجلبه لصديقه ليشربا سويًا. كان يترقب أن يسمع قصة "الصديق القديم". وضع علي الكرسي الخشبي أمامهما، ووضع عليه أكواب الشاي والكأستان، ثم جلس بجانب محمد.

مرّت عشر دقائق من الصمت، وعلي ينتظر أن يبدأ محمد بالكلام. لكن محمد ظلّ صامتًا، محدقًا في السقف المتعفّن المتشقق، دون أن ينطق بكلمة أو يصدر أي صوت.

سكب علي كوبًا من الشاي ومدّه لمحمد، وقال له بنبرة بدأت تحمل نفاد الصبر:

-اشرب الشاي يا محمد، فإنه يبعث الدفء في القلب.

لكن محمد لم يلتفت إليه ولم يرد، ليس عن عمد، وإنما لأن تفكيره المفرط أنساه أين هو.

عاود علي مخاطبة صديقه، لكن هذه المرة بلهجة حادة:

هيه! ألا تسمعني أيها الأبله؟ إن الشاي سيبرد، وصبري سينفد. تكلم وكفاك تمثيلاً!

نظر محمد إلى علي أخيرًا، ورفع حاجبه الأيمن وهو يقول:

-ليس تمثيلًا! إنني غارق في بحر من الأفكار المتشابكة في رأسي.

-إذن أخبرني!

-سأخبرك... لكن أسكب لي كوبًا آخر، هذا قد برد.

-حسنًا، يا لك من سخيف!

أعاد علي ملء الكأس بالشاي الساخن ملبّيًا طلب صديقه، بينما كان صوته الداخلي يهمس: (إنه يحاول أن يضيع الموضوع بأي وسيلة. أعرفه جيدًا، لطالما كان ماكرًا، يجيد إضاعة الوقت وإدخالك في متاهات لا أبواب لها). صبَّ الشاي بحذرٍ، ثم انتهى من تعبئته، ورفع عينيه إلى محمد مقطّبًا حاجبيه، وتعابير وجهه تنطق بنفاد صبره. قال بخشونة:

إن لم تخبرني قصة "صديقنا القديم" هذا، سأطردك خارجًا، ولتذهبا معًا إلى الجحيم!

ردّ محمد متجاهلًا ببرود:

مم... أوه! الشاي ساخن جدًا. أحضر لي قدحًا من الماء.

صرخ علي مستشيطًا:

يا لك من شيطان ماكر! لن أحضر لك شيئًا، الماء أمامك على الطاولة. أنت خبيث! قل لي الآن وإلا طردتك حقًا!

ضحك محمد ضحكة ساخرة، وقال:

حسنًا، سأخبرك أيها العصبي.

محمد، رغم هدوء طبعه وبرودة تصرفاته، كان يتمتع بتقلبات مزاجية تجعل من حوله يظنون أنهم لا يعرفونه حق المعرفة. لم يستطع أحد أن يفهمه حتى اليوم.

أفرغ كأس الشاي في جوفه، ثم شرب بعض الماء لترطيب حلقه. أخذ نفسًا عميقًا وقال:

كل ما في الأمر، يا صديقي الميكانيكي، أنني التقيت بشخصية قديمة، قديمة جدًا.

صمت لحظة ثم أكمل بنبرة حنين:

إنه شخص نحبه أنا وأنت. أكثر شخص خلوق ونظيف، لا دنس فيه. كان صديقنا أيام المدرسة، بل الذي كنا نقول عنه: "المربى خمسين مرة".

نظر علي إلى محمد بدهشة، وقال:

آه... لقد عرفته! أليس كذلك؟ انظر لعينيك، اتسع بؤبؤاهما، ووجهك تبدّل لونه. لقد عرفته.

ابتسم محمد ابتسامة غامضة، ثم قال بهدوء:

أجل، إنه هو. الشخص الذي اقتحم مخيلتك الآن هو من أقصده... إنه عمران.

صرخ علي فجأة:

عمران! حقًا كما توقعت! لكن، ماذا به؟ لماذا تبدو عشوائيًا إلى هذه الدرجة؟ هل التقيت به؟ ولكن... وإن

التقيت به، فهو أفضل شخص يمكن أن تراه. إنه نقي وبشوش. ما الذي يشغل بالك؟

تنهد محمد بعمق وقال:

بل كان... كان الأفضل، وكان نقيًا وبشوشًا. كان ذلك الصالح ابن الصالحين.

توقف علي للحظة وقال بحذر:

كان؟ يبدو أن هناك "إنّ" في القصة. شوقتني! ماذا حدث بينكما؟ أين هو الآن؟ ماذا يعمل؟ هل أكمل دراسته؟ ولماذا تصمت مجددًا أيها البارد؟

رد محمد محاولًا تهدئة الموقف:

سأخبرك. فقط اهدأ، صراخك هذا يوتّرني!

اعتذر علي على عجل، ثم قال بحماس:

حسنًا، هيا انطق!

ساد الصمت أرجاء المكان. ارتحل صخب السيارات التي كانت تصدر ضجيجًا في الشارع الخلفي لهذا الحي، وازداد صوت تضارب أوراق الشجر ببعضها من شدة الرياح. مواء القطط التي تتشاجر عند باب الورشة بدأ كعادته كل ليلة. صمت مريب خيّم، حتى تكاد تسمع دبيب النملة على الأرض. كان هناك ضوء يتحرك يمينًا ويسارًا بفعل الهواء، وأفكار متداخلة تعصف برأسي الرجلين الجالسين هناك، حتى إنك لتكاد ترى تلك الأفكار تتصاعد كالدخان من رؤوسهم.

عدل محمد جلسته، انتصب ظهره ورفع صدره للأمام، شبك يديه ببعضهما متكئًا بكوعيه على ركبتيه، ثم قال بصوت متقطع:

ليلة أمس، بعد انتهاء دوامي في الجامعة، كنت ذاهبًا إلى مسؤول العمل الذي أتعاون معه عند وجود ورشة ينقصها عمّال. وفي طريقي، بعد العشاء، مررت بشارع مهجور يشبه ذاك الذي تسكن فيه أنت تمامًا، لكنه قصير، لا يزيد طوله على خمسين مترًا. كان مظلمًا كليًا، معتمًا كالسواد الذي يغشى من يجلس فيه. رأيت هناك عمران.

هل كان جالسًا هناك؟

نعم، كان يجلس هناك ويحاول إيقاد نار صغيرة، وهذا ما لفت نظري. كان هناك ضوء خافت ينبعث من شيء صغير، افترضتُ أنه ولّاعة، وشخص يعطي ظهره،

يحاول إشعال النار. تساءلت: لماذا قد يجلس أحدهم في مكان كهذا، لا شيء فيه على الإطلاق؟ أخبرتك بأن طوله لا يتجاوز خمسين مترًا، وفي نهايته حائط يفصله عن الشارع المؤدي إلى السوق مباشرة. على الجانب الأيمن، توجد ثلاث حاويات كبيرة للنفايات.

ثم... ماذا فعلت؟ تابع، لا تتوقف!

لا تتعجل، سآتيك بالكلام.

عندما تقدمت بخطوات حذرة وبطيئة نحو ذلك الرجل المجهول، أطفأ النار التي كان يحاول إشعالها. فتحت عيني على اتساعهما محاولًا أن أتبين شيئًا. استطعتُ رؤيته: إنه عمران، كان يضم دفتي معطفه بيديه ولم يدر لي ظهره بعد.

لم أنبس بكلمة. كنت على وشك الرحيل، لكن فضولي تغلب عليّ. أخرجت هاتفي وأضأت مصباحه، وعندما رأيته عن قرب، لم أعرفه. لم أتعرف إليه في البداية.

اقتربت منه، وخزت كتفه بإصبع السبابة، وقلت له:
"هي، أنت! ماذا تفعل هنا في هذا الشارع المظلم؟ أتواجه مشكلة ما؟"

لم يجبني، لكنه ربما عرف صوتي. استدار ليحدد من أكون.

إن عمران رجل ذكي وفطن وقوي الذاكرة. حتى وإن كنت محلّك يومها، فإن سماعه لصوتك كافٍ ليعرفك.

أدار وجهه نحوي وقال بصوت مرتجف، بالكاد يُسمع:
"محمد!"

تجمدت في مكاني. من هذا؟ بقيت خمس دقائق محدقًا في عينيه، محاولًا أن أتبين هويته. ملامحه لم تكن كما

عهدتها، لكنها نظرته البريئة تلك، البريئة من أهوال هذا العالم الوحشي، لم تتغير.

ما إن أدركت أنه عمران، ازددت جمودًا والصدمة تعتريني. ما الذي حدث له ليصبح بهذا الحال؟ عمران، ملاك "شلتنا"، الرجل صافي القلب. كيف انتهى به الأمر هنا؟

كل هذه التساؤلات وأكثر اقتحمت رأسي، فأصبحت مشوش الفكر، حائرًا، أضعاف ما ترى عليّ الآن.

وماذا؟ لا تتوقف! تابع، تابع!

سأكمل...

بقينا مُحدقين بِبعضنا قرابة الخمسُ دقائق، شريط ذكرياتي معهُ بدأ يعرض أجمل اللحظات، ولربما هو كذلك، بل هو كذلك بكل تأكيد.

كُنتُ سأسأله على الفور لماذا هو هنا؟ مُنعزل عن الوجود يؤنس عتمة الشارع، ولكن ليس بحقي أن اسألهُ.

تخيل بأن تلتقي بصديق لكَ آخر مرة سمعتَ عنهُ خبرًا قُبيل سنوات، وتأتي على فجأة تُريد أن يخبرك عنهُ وعما يمر به، إنها لوقاحة أقل ما يمكن وصفها.

- آه. مم، وماذا بعد ذلك؟

إن عينيكَ تلمعان واتّسعتا ووجهك اصفرّ يا محمد، أخبرني ماذا دار بينكما من الحديث، قل لي ما حدث دفعةٌ واحدة ولا تقسط الكلام.

أخذ نفسً عميقًا كمن يتهيأُ للغوص، وربما هو غوص حقيقي، بين أشرطة فيديو قديمة، روايات أصدقاء ثلاثة تحملُ بين طيّاتها كل ما هو عَتيق مُفرح، أخرج زفيرًا من فَمهُ وقال:

- بعدما بقينا صامتين نحدق ببعضنا، أشار عمران بيده لي طالبًا مني الجلوس مُقابله، لم ينطقُ بكلمة واحدة،

فقط أشار بإصبعهُ كي أجلس، ربما كان ينتظرُ أنيسًا، يبدو وحيدًا، إنك لترى انعزال الشخص ووحدتهُ من تعابير وجههُ.

كنتُ خجولاً حينما جلستُ مُقابله، قد عُقِدَ لساني ألفي عُقدة، وخيطتُ فمي وتعرّق جبيني، وهو ساكن هادئ لا ينطقُ، فقط يُحاول أن يوقد كومة القش فوق الحطب.

هممتُ بالنهوض لأساعدهُ، ولكنه رفع يده لي لأبقى جالسًا بمكاني، ويحرك يدهُ لأعلى وأسفل طالبًا مني الهدوء، ولكن لم أرد عليه، نهضت وساعدتهُ بإشعال النار أخيرًا.

عدت للجلوس، كان يحك يديه ببعضهما كي تدفء، ولا يزال صامتًا، وأنا، أنا لا أعلم.

لا أريد الجلوس أكثر معه لأنني أشعر بالخزي والعار، ولا أريد الرحيل وتركهُ، إن رؤيته قد افرحتني، على الرغم من حالته المزرية.

- طالما أنه بقي صامتا، لماذا أنتَ قَلق لهذا الحد؟

- لم يبقَ صامتًا، والغريب بأنه هو من بدأ الحديث، توقعتُ لن ينطقُ بِكلمة واحدة، ولكنهُ تكلم، تكلم معي.

- حقًا؟ ماذا قال؟

- سأقِصُ عليكَ ما جرى، وأُخبِرُكَ بالذي جعلني حزينًا على حالهِ.

كان يفرك يديه أمام النار الموقدة، وينظرُ إليها بكل جمود، وسألني بلهجة هادئة باردة:

- ما الذي أتى بكَ يا صديقي القديم؟ بكل تأكيد لم تكن وجهتك تقصدني، ولكن، انتابني الفضول -على غير عادتي إن تَذكُرني - لأعرفُ سبب مجيئك.

- هم، نعم أَعرِفُكَ لستَ بالرجل الفضولي

- إذن ماذا أتى بكَ؟ لربما أتيت تكبُ النفايات في الحاوية، ولكن لم اصدفك يومًا تفعل ذلك، لربما لا تعرف، ها، بأنني أعيشُ هُنا.

- تعيش؟ هُنا! ألا يوجد بيت تأوي نفسك فيه؟ عائلتك، أُناسك، أين من هم حَولِكَ؟ ألم تكمل دِراسَتُك؟ أين وظيفتك؟

عندما سألته هذا السؤال (الأسئلة قصدي) المتتالية، صمت وابتسم ابتسامة خاسر الحرب وليس معركة.

بداخلهُ رفوف أسرار أريد أن انبِشُها، أزيل الغبار عنها، ليس لأحيي جراحه المكبوتة (أعلم بأنه مكسور مجروح)، بل لأحمل معهُ همهُ، أريد أن اسمعهُ، من هم مثلهُ فقط يريد آذان تصغي لهم، وما هو الأمر الأسوأ من أن تفتقد لمن يسمعك؟

- يا لكَ من طيب أيها الساذج الفضولي.

- نعم إنني فضولي، ولكن يا علي، تعلم، تعرفني بأنني لا أحب رؤية أصدقائي، وإن كانوا قدامى، لا أحب رؤية أحدهم بهذه الحالة، حالتهُ تصعبُ على الكافر، تراهُ ستشفق عليه، ستتمزق شرايين قَلبُكَ، ستبكي عليه كما بكيت عندما سمعت عِتابهُ لي، وما رواه لي، إنني بكيتُ أمامهُ!

- ماذا روى لكَ؟

- سأخبركَ..

بعدما صمت لدقيقتين وهو يبتسم ويعبث بالنار بغصن شجرة رفيع، سألته مرة أخرى ماذا بكَ؟ أجابني وهو يبتسمُ:

- وماذا يهمك

- هلا أخبرتني؟ إنكَ تريد الحديث، أرى ذلك في عينيكَ، إن جفنك قد اتسع، وعينيك تقدحان شرارًا، وصدرك قد انتفخ بالكَلام المَكتوم يَريد الخروج، نفّس صدرك وأرح قَلبُكَ، لا تبقى صامتًا هكذا، أرجوك، قل لي، كم اشتاق للحديث معَك يا عزيزي، رباهُ لو تعلم كم اشتقتُ لكَ، قل لي أريد سماعك!

بقي صامتًا ويبتسمُ، وكانت الدمعة تتراقص على هاوية عينه، وبعدما الححتُ عليه قد نطق، وقال لي:

- ماذا تريد أن تعرف؟ صَديقُكَ القديم، قد تدمر، انعزلتُ عن العالم، ما حدث لي لم يحدث لأي شخص آخر.

سافرتُ إلى هنا وعائلتي بقيت في إقليم الشمال، أتيتُ لأتم دراستي، ولكن لم أستطع، لم أكمل دراستي، عائلتي قطعت اتصالها بي لا أعلم السبب، وكأنهم انتظروا رحيلي هذا، قد علمت أن أخي الكبير قد تزوج واستقر، وأختي الكُبرى تزوجت وسافرت رفقة زوجها إلى أميركا، وأنا لم يَسألُ عني أحد.

كانوا يرسلون لي نصف مبلغ الأقساط الجامعية وأنا اكملهُ بعملي هُنا، لم يرسلوا لي شيءٍ لمدة سنة، ولا

فلس قد وصلني، ولم يجيبوا على اتصالاتي، انقطعتُ تمامًا.

إنني أعمل هنا، في الملهى الليلي بأول الشارع، عامل نظافة فيه، أمسح الطاولات خلف الزبائن، وأرمي أكياس الزُبالة هُنا.

اتعرضُ لجميع أنواع الذُلِ والإهانة، كم من مرة تعرضتُ للصفع والشتم، كم مرة بُزق في خلقتي!

أنام هُنا في الأيام العادية، ويسمح لي مديري بالنوم في المحل عندما تُمطر، على الرغم من أنه يهيننني، ولكن به رحمة أكثر ممن يدعون أنهم عائلتي.

- عمران!

- لا تنطق يا محمد، أيها الفضولي الذي أحبه

- عمران! صديقي العزيز.. إنني

- لا تكمل

- لقد تغيّرتَ كثيرًا، لوهلةٍ شعرت أنني لا أعرفك، أحقًا هذا أنت؟

- هه، لم تعرفني أليس كذلك؟ علمت هذا، خمّنت ذلك، عندما رأيتني، وتحاول أن تتذكر من أنا، لمن هذا

الصوت، عرفت ما ستقوله من نظراتك المُتشككة حول مَعرِفَتُكَ بي، أنه هل الذي أمامك هو صديقك القديم؟

عمران، رفيق طفولتكَ، وأنيس روحك، وبئر أسرارك، وشخصك المُفضل الوحيد.

بالنسبة لكَ، إنني ذات الشخص، بشحمهِ ولحمه، لا زالت بُنيتي الجسدية الهزيلة كما هي، التي لطالما كُنتَ تمازحني عندما تسخر منها.

وأيضًا لا زلت أسمر اللون، وأذكر عندما كنت تناديني دائما بـ "الأسمر".

ولكن شعري ليس كثيفًا كما كان قبل، إن لحظتَ ذلك فقد تساقط جزء كبير منه.

كشخص بالنسبة لكَ، أنا هو السابق، ولكن بالنسبة لي، فإن شخصيَ الرمادي راقدًا في قبرهِ مُنذُ سنين طويلة، دفنتهُ بجانب سعادتي المُغتالة.

لم أعد أبتسم كما كُنت بِرفقتكَ، ولا صوت ضحكاتي وقهقهتي تملأ "بيت الدرج" عند الصعود إلى المنزل كما كنا سابقًا.

استحوذ عليَ الحزن، وتهيمن بداخلي الظلام، والاكتئاب قد حلّ بديلًا لملامحي التي تلاشت، والعقد النفسية هي من ملأت أركاني وازاحت ذكرياتي الوردية التي كانت معكَ.

تنظر إليَ الآن -يا صديقي الحميم، لن تجد شيءٍ مُختلفًا، الحق معكَ.

ولكن، أمعن النظر قليلًا في وجهي العابس، وتأمل بُنيتي المهزوزة، واقرأ ما في عينيْ، ستجد بأني قد أصبحتُ ضمن ذِكرياتُكَ الرمادية، وأني الآن الإنسان المختلف كليًا عمن تعرفهُ، أو عرفته سابقًا.

اوه يا إلهي ذُلّ لساني قليلًا، أنا لم اختلف، بل أنا شخص آخر الآن، وإن جالستني أضعاف ما رافقتني سابقًا في سبيل التعرف علي، واستكشافي، ستفشل فشلًا ذريعًا، يا "صديقي الرمادي".

أوصل سلامي لنفسي القديمة، وبلغها بأني اشتاقُ لها.

وبهذا الكلام يا علي أنهى عمران حديثهُ، وبدأت الدموع تهطل من عيني بغزارة أكثر منك الآن، قد اطفئ النار بالماء الذي بجانبه، وأشار لي بيده يودعني ورحل.

لم أقوى على النطق ومنعهُ من الرحيل، ليس لي عين، لم أستطع أن الحق به حتى!

هذا هو صديقنا القديم، لم يعد كما هو، عندما نَهضتُ قد رأيت بضوء كشافي زجاجة خمر بجانبِ فراشه، إنه رجل سكير أصبح أيضًا، وإن لم يشرب أمامي، ولكنهُ أصبح سكيرًا، لم أريد أن اظلمهُ، لربما سقطت من إحدى الأكياس، ولكن ملامحه ليست بطبيعية، عدا ذلك، انهُ يعمل في ملهى ليلي، بالطبع سيفعل ذلك، غير ذلك، إنه حزين وحيد، سيشرب لينسى، لربما سيشرب ليموت.

فالموت هو السبيل الوحيد للراحة، الموت هو المهرب من وحش الحياة القاسي، وانا سأموت حسرة على صَديقُنا الرمادي.

الخاتمة:

قد حركت مشاعرك، وأزلت الغبار المتراكم على أيامك المهجورة، وذكّرتك بما نسيته. أنت تتألم الآن، وربما تبكي أيضًا، لكن لم يكن هذا مقصدي.

ربما تكون هذه أقصر خاتمة تراها، لكن ما أردت الوصول إليه هو أعماق قلبك؛ أن تعود لمن تحبهم ونسيتهم، أو تناسيتهم وغفلت عنهم، وأولئك الذين سرقتهم منك الأيام حتى بتّ وحيدًا.

وأنت... تستطيع إصلاح كل شيء. يمكنك العودة. أنت وهم، نفس الأشخاص، فقط الأجساد قد اختلفت.

لطالما قيل لنا إن الذكريات وكل ما هو جميل يصنعه الجليس، لا المكان. إذن، فلتعد إلى جليسك واختر ما شئت من الأماكن. وبئس الأماكن إن لم تجد.

المهم أن تعود، فهذا ما يهم.

النـهايـة